دور الغدير في توجيه المجتمعات البشرية

الكاتب: هلال‌بن حسن‌بن علي اللواتي[1]

المشرف: الدكتور السيد حسن إماميان[2]

استلام: ١٤٣٦/٦/٣ قبول: ١٤٣٧/٥/٢١

الملخص

تارة ننظر إلى واقعة الغدير بنظرة تحدها الحدود الزمانية، والتي تؤطرها الأطر الجغرافية المحددة، وأخرى ننظر إليها كمرحلة تتوسط بين مرحلة بعثة النبوة وبين مرحلة استلام مهام البعثة، والمراد بمرحلة النبوة هو كل الثقل الموروث للنبوات قاطبة، وإنما قيدناها بالبعثة من باب إرادة الكل بذكر الجزء الأهم الجامع والشامل والمختزل لكل ما تقدمه، ولعل كلمة الهيمنة التي جاءت في الآية المباركة: «**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**».[3] تبين هذا المطلب، فبهذا البيان تكون واقعة الغدير منعطفاً من أهم المنعطفات التي رسخت وأثبتت ركائز أهداف الخلقة، وساقت الولايةُ البشريةَ إلى حيث تحقيق أهدافها الوجودية، وكان هذا بقيادة العقل، وستعرف على هذا الأمر في الصفحات القادمة بشكل جلي مع الاختصار.

الكلمات الرئيسة: واقعة الغدير، الولاية، الإمامة

المقدمة

لما أن نعتقد بمدخلية دور الغدير في توجيه المجتمعات البشرية فهذا يعني أيضاً أن لها رؤية خاصة في تشكيل المجتمع البشري قاطبةً، وهو يعني أن هذا الدور ليس مقتصراً لما سيأتي من بعد واقعة الغدير؛ بل إنه امتداد لحركة البشرية منذ أولى مراحل تأسيسها، بل ووجودها، وهذا الأمر إن أثبتناه فسنعلم جيداً حجم الدور المناط بـ"الولاية"، وأيضاً سنتعرف على حجم التحدي الذي واجهته وتواجهه.

إستراتيجية مفهوم الولاية

تعتمد الولايةُ التوحيدَ المحور الوحيد الذي عليه تقوم سائر مسائلها ومفاهيمها وأحكامها، ولا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض، فهي تجلي له في أعظم الصور المتخيلة والمتصورة فضلاً عن المتعقلة، ولعل أفضل مثال يمكن أن يضرب هنا هو مثال الصورة والمرآة.

ومع الرجوع إلى أول تسجيل قرآني لتاريخ الإنسان فسنجده في الآية المباركة، في قوله تعالى:

«**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**».[4]

١- طالب في مرحلة الإجازة فرع الشريعة الإسلامية، hilal313@gmail.com

٢- أستاذ في جامعة المصطفى ﷺ المفتوحة، dr.imamian@gmail.com

٣- المائدة: ٤٨.

٤- البقرة: ٣٠.

وهذا يعني أن هناك مشروعاً ريادياً تقوم الجهة الإلهية بتبنيه، وكان هذا الإعلان مثابةُ عن بدء التنفيذ والتحقيق، إلا أنه هذا المشروع الإلهي واجه عقبة خطيرة، وقد ذكر الكتاب العزيز هذا المشروع الخطير في عدة مواضع من آياته وسوره، منها في قوله تعالى:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ».[1]

ويثبت لنا القرآن العزيز مجموعة من المسائل التي برزت إثر إعلان إبليس تمرده على التوحيد الخالص، والجامع لهذه المسائل هو: الإستراتيجية المضادة، فقد أعلن إبليس أنه عازم على الإطاحة بـ"التوحيد" فإعلنها خطةً إستراتيجية.

بهذه العناصر الثلاث الرئيسية تتحقق الخطة الإستراتيجية:

١- هدف الخطة

قال تعالى:

«لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ».[2]

٢- المدة الزمنية لتنفيد الخطة

قال تعالى:

«قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».[3]

٣- الوسائل لتحقيق الخطة

قال تعالى:

«لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ».[4]

ومع تأمل غير شديد سنجد أن المصدر الأساسي لتعلم إبليس عن ما يعرف بالخطة الإستراتيجية هو الله تبارك وتعالى حينما تم الإعلان عن مشروع تحقيق الإنسان الكامل، فكان كما نجده وجود خطتين إستراتيجيتين، إحداهما: المشروع الإلهي، والثانية: المشروع الإبليسي، وبالنظر إلى ما عليه الخطة الإلهية لتحقيق المشروع العظيم فسنجد فيه الآتي:

١- أنه مشروع التجلي لأسماء الله وصفاته، ونشوؤه لم يكن إلا عن عوامل موضوعية تنسب للذات الإلهية.

٢- أن هذا المشروع ماض في تحقيق أهدافه، لأنه لم ينشأ عن ردة فعل، وإنما كحركة طبيعية في عالم الفاعلية لجمال الله تعالى وجلاله، بعكس ما نجده في المشروع الإبليسي الذي كان عن:

- الحركة المضادة المعاندة، فلم يكن يتحلى بأي عامل موضوعي لنشوئه.

١- الأعراف: ١١.

٢- الأعراف: ١٦.

٣- الحجر: ٣٨-٣٦.

٤- الحجر: ٣٩.

- فبناء عليه قد كان نشوؤه عن ردة فعل سلبية تجاه أولى لبنات المشروع الإلهي بلحاظ نزوله إلى عالم التعريف به، وهذا يثبت أنه متأخر وجوداً عن المشروع الأول، وسيظل هكذا في كل مسيرته.

ومع النظر إلى طبيعة ما عليه العالم الإلهي فسنجده في أبرز الصور التي عُرف بها، وهي: العقل، وأما لو نظرنا إلى ما عليه الطبيعية الإبليسية فسنجدها تظهر في أبرز صورها وهي: الوهم، وهذا يعني أن إبليس حينما أعلن عن تمرده على التوحيد إنما أعلن عن معركة الوهمية، وهي ضد العقلية، وقد كان أبرز رواد العقلية هم: الأنبياء والرسل والأوصياء.

التدرج في الرسالات أم التوازن

فمن المشهور في الوسط الفكري أن الرسالات السماوية تدرجت في قوتها المعرفية، وأن وراء تدرجها هو مستوى العقل الإنساني الذي كان يتكامل شيئاً فشيئاً إلى أن وصل إلى هذه المرحلة من التكامل؛ الأمر الذي دعا إلى إنزال رسالةٍ بمستوى قوة العقل ومرحلته، وبمستوى وعيه، والحقيقة أن هذا الكلام غير تامٍ أبداً، بل ومعارضٌ بمجموعة من الحقائ ، وهذه الحقائق تتأسس أساساً على العقل وما يلازمه، ولكن كيف ذلك؟

الجواب: لأجل أن يتضح الجواب لا بأس ببيان بعض المقدمات المهمة:

- **المقدمة الأولى**

إن الله تبارك وتعالى يحاسب كل إنسان–من لدن آدم عليه السلام إلى آخر إنسان على وجه الأرض–على ميزان العقل، والروايات صريحة في بيان هذه المسألة، فقد ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«إن الله عز وجل لما خلق العقل قال له: أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال تعالى: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أكرم علي منك؛ بك أثيب وبك أعاقب وبك آخذ وبك أعطي.[1]

- **المقدمة الثانية**

إن الناظر إلى المجموعة الإنسانية من لدن آدم إلى آخر إنسان على وجه الأرض سيجدها كلها تسير إلى هدفٍ واحدٍ،[2] وهو لقاء الله تعالى، قال تعالى:

«**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**».[3]

- **المقدمة الثالثة**

فإذا كان الهدف واحداً، فيفترض إذن أن يكون المضمار أيضاً واحداً، والمضمار الذي وضع الإنسان فيه هو هذه النشأة المسماة بـ"الدنيا"، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام:

- «وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ».[4]

١- المجلسي، ١٤٠٣، ج١، ص. ٩٧.

٢- لقد سبق وأن تحدثنا عن المضمار والهدف والوسيلة والقابلية التي زود بها الإنسان في الحلقات الأولى من الكتاب بنحو تفصيلي.

٣- الانشقاق: ٦.

٤- نهج البلاغة، الخطبة ١٨٣.

- «أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ».[1]

- **المقدمة الرابعة**

ويستدعي ذلك بالضرورة أن يكون هذا السباق موحداً في كل خصائصه ووسائله.

ومن أهم ما أخذ في تكليف العباد للسير في مضمار السباق للوصول إلى هدف الخلقة هو:

١- العقل؛

٢- البلوغ؛

٣- القدرة؛

٤- الاختيار.

- **المقدمة الخامسة**

ولأجل إنجاح مشروع السباق زود الإنسان بالمقرر الذي يمتحن عليه وبما جاء فيه، فكان هذا المقرر: الرسالة السماوية، التي حملها أنبياء الله تعالى عليهم السلام.

فالنظر إلى جميع المتسابقين كوحدةٍ واحدةٍ، تسير إلى هدفٍ واحدٍ، ويفترض لها قدراتٍ وقابلياتٍ موحدة، وأن تكون الوسيلة المتاحة لهم جميعاً واحدة أيضاً، فاذا حدث ذلك. صح أن يقال أن المتسابق الذي سيفوز في هذا السباق الوجودي يكون الأول على المجموعة البشرية كلها، وإلى هذه الحقيقة أشار القرآن الكريم، قال تعالى:

«**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**».[2]

وجاءت الآية المباركة في سياق بيان الطبقات الثلاثة التي ستنقسم إليها البشرية كلها يوم القيامة، فلو كان لكل مرحلة من تاريخ البشرية قدرات التكليف تختلف عما كانت عليه السابقة والتي ستكون عليه اللاحقة لانتفى موضوع السباق الوجودي الموحد، ولما صح تمييز الأول من بين كل المجموعة، نعم لكان الأنسب أن يكون على كل مرحلة الفائز الأول، وبهذا سيتعدد لدينا الفائزون الأوائل، ولن يكون هنا معنى السابق والأول على كل المجموعة البشرية وهو خلف.

١- القول بالتدرج معارض لبديهيات المعارف الإلهية

والقول بوجود تدرج في الرسالات لعلة الضعف العقلي، ولعلة ضعف الوعي لدى المراحل السابقة من البشرية؛ ووصولها إلى ما وصلت إليه من معارف عالية المستوى وقوية في مضامينها وأسرارها هو لأجل قوة العقل والفكر الذي وصل إليه الإنسان؛ هو قول مخالف لبديهيات المعارف الإلهية التي جاء بها الثقلان القرآن الكريم والعترة الشريفة.

١- م.ن، الخطبة ٢٨.

٢- الواقعة: ١١-١٠.

٢- القول بالتدرج يوجب الطعن في العدالة الإلهية

فهو يوجب الطعن في العدالة الإلهية أيضاً بتقرير: أن الفائز الأول في السباق الوجودي منح هذه الرتبة لأنه حصل على إمكانات أكثر قوة من الإمكانات التي حصل عليها الإنسان الماضي والسابق؛ وقد كانت هذه الإمكانات ضعيفة لأجل مستواه في الوعي، ففي هذه الحالة يحق للإنسان الماضي أن يحتج على الباري سبحانه وتعالى ويقول له يا ربي إنك لم تعطني ما أعطيت الإنسان الذي جاء بعدي من الإمكانت الضخمة، فلو أنك أعطيتني ما أعطيته لكنت أنا أيضاً من أوائل السابقين، فبناء على ما تقدم من الإشكال لا نقبل أن يقال أن الإنسان الماضي والسابق كان أقل وعيا من الإنسان القادم واللاحق، إذن كيف تحل الإشكالية؟

- **المقدمة الأولى**

إن البشرية كلها قد إعطيت نفس الإمكانات والقابليات والمؤهلات التي تحتاجها في مضمار سباقها للوصول إلى هدف خلقتها.

- **المقدمة الثانية**

نظراً إلى أن إبليس بدأ بالتخريب على الفطرة، وبدأ بإيجاد وسائل وطرق الإغواء جديدة في مراحل لاحقة من تاريخ البشرية التي لم تكن معروفة في المراحل السابقة.

وقد يتساءل البعض: كيف تمكن إبليس من تطوير إمكانياته وقابلياته في الإغواء والفتن؟

الجواب: إنه تمكن من تطوير مهاراته في التخريب والفساد نتيجة تفاعله مع القوة العاقلة الموجودة في الإنسان، وهي التي شكَّلت مادة درسية كان إبليس يتعلم منها ويستفيد لأجل إضفاء عمليات تطويرٍ على أساليب الإغواء والغي.

النتيجة: فكان لابد في المقابل من رفع مستوى جرعات معارف التوحيد للبشرية حفاظاً على نسبة المستوى في السباق الوجودي، وهكذا كانت الجرعات تتناسب طردياً مع الهجوم الإبليسي على العقل- الذي هو ما عالم الملكوت- الطريق الموصول إلى الله تبارك وتعالى، فبزيادة الجرعات المعرفية كانت الفجوة- التي كان يوجدها إبليس في المراحل البشرية في تاريخها- تسد، وبالتالي تحفظ النسبة بين كل المراحل التاريخة، ويتحقق معنى «**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**».

ويمكن تشبيه الأمر بـ"الصرصور" إذ له المقدرة على التكيف مع الدواء، فإذا هُجم عليه بدواء فإن هذا الدواء يقضي عليه، إلا أن بيضه يبدأ بالتأقلم والتكيف مع هذا الدواء، فحينها يحتاج إلى دواء جديدة من نوعه نظراً لما استجدت عليه من حالة الصرصور في مرحلته اللاحقة، واختلفت عن المرحلة السابقة، وهكذا ويستمر الوضع إلى مدة طويلة جداً، فالتكيف مستمر كما أن تجديد الدواء يكون مستمراً، وأما الصرصور بما هو هو فيبقى على شكله وحاله وخِلقته، والعقل هو هو لا يتغير، فما أعطي له من الإمكانات والقدرات من أوائل خِلقته هي نفسها لا تتغير، وإنما يحتاج إلى وسائل جديدة لأجل تجديد المقاومة، وتطوير مهارات الدفاع والهجوم.

طرق تقوية إبليس وأساليبه: وقد يرد هنا هذا التساؤل. كيف يتقوى إبليس على العقل؟

الجواب: من خلال القوة العقلية.

السؤال: وكيف ذلك؟

الجواب: بما أن القوة الوهمية توجد في الإنسان ضمن بقية القوى الثلاثة- العقلية والغضبية والشهوية- فإنها تبدأ بالاستفادة من خلالها بالطريقة الآتية:

- **الأولى: على نحو الموضوعية**

وذلك من خلال القوة العقلية وما لديه من المعارف حول العالم والوجود، وطريقة عملها في تهذيب النفس، فاذا دَبَّ الانحراف في النفس؛ فإن القوة الوهمية تستفيد من العقل ومن أساليبه مباشرة في كيفية الإصلاح ومقاومة الانحراف، ومن هنا يتعلم إبليس فيوجد حيله وخططه الجديدة.

- **الثانية: على نحو الطريقية.**

وذلك من خلال طريقة عمل القوتين الغضبية والشهوية، ومرجع طريقة عملهما هو العقل أيضاً، إلا أن القوة الوهمية تستفيد من أساليب وطرق العقل في إدارة القوتين الشهوية والغضبية بواسطتهما.

إبليس يتعلم من الإنسان

وخلال مراحل تقدم الانسان يتعلم إبليس من الإنسان طرقاً جديدةً وأساليب متطورةً في إغوائه، لذا يحتاج في مراحل تقدمه في الإغواء إلى علاج ودواء سماوي أكثر قدرةٍ من ذي قبل في محاربة الشيطان، وهذا ما يجعل العقل محافظاً على مستوى قوته في عالم التكليف الإلهي، وإن اختلفت النسبة لاختلاف الهجوم الشيطاني، وإن هو احتاج إلى جرعات معرفية أقوى، فلا مانع من الجمع بين الأمرين، إذ إن إبليس يغدو متعلماً من الإنسان، فيعرف وسائل حركته، فهنا يحتاج الإنسان إلى التزود بمعارف جديدة كي يتمكن من إيجاد وسائل جديدة لأجل مقاومته وصد هجماته، والتطور في أسلوب التعامل مع الحياة ومع الوجود، وهكذا نجد العملية تكون مستمرة، وكما تلاحظ أيضاً أن السماء تقوم بإيجاد التوازن للعقل كيما لا يصبح ضعيفاً فيقضي العدو اللدود عليه، فيبقى العقل محافظاً على توازنه على مر العصور، غاية ما في الأمر أنه يتلقى ما يحفظ به توازنه أمام قوى الشر.

فالتدرج في مستوى الرسالات من قوة إلى أقوى لم يكن لأجل تدرج البشرية في مستوى عقلها، وإنما كان لأجل الحفاظ على مستوى قوة العقل ووعيه، وذلك بإيجاد التوازن في مراحل التاريخ للبشرية الذي كان إبليس يحاول إخلال أركان تلك القوة العقلية وعناصرها بتقوية القوة الوهمية في الإنسان ليمنعه من السير في صراط العبودية.

القوة العقلية الرافضة لتعليم إبليس

وكما هو معلوم لو أن القوة العقلية قويت، وأصبحت القوة الوهمية بالخصوص مع القوتين الغضبية والشهوية تحت إمرتها لما استطاع إبليس أن يتعلم من الإنسان طرق الإغواء وتطويرها، بل لظل رهين سجن وهمه وضعف حيله، قال تعالى:

«**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**».[1]

١- النساء: ٧٦.

اتحاد القوة العقلية والقوة الوهمية يشكِّل أعظم قوة على وجه الأرض على الإطلاق

فمن كانت القوة الوهمية هي الآمرة في مملكة نفسه، وكانت القيادة بيدها فإن القوة العقلية لا تعمل لديه بالشكل الصحيح، إذ تصبح بحكم الأسير، ويسهل النفوذ والاختراق إلى مملكة النفس بسهولة ويسر، إلا أنه لو أصبحت القوة العقلية هي المالكة لزمام مملكة النفس، وأصبحت سائر القوى الغضبية والشهوية والوهمية تعمل تحت إمرتها، فإن طرق النفاذ إلى هذه النفس يصبح صعباً، إلى أن يصبح الحال بحكم الإستحالة، فحينها تقوم القوة العقلية باستعمال القوة الوهمية بما يتلاءم وطبعها الملكوتي الإلهي فحينها تبتدع في العالم اللامتناهي من الخطط والأساليب والطرق للوصول إلى الأهداف السامية، وتخترق حينها كل دفاعات إبليس وجنده من حيث يشعر ومن حيث لا يشعر، فلذا نجد في الآيات الروايات تخبرنا عن الإعلان للفشل والهزيمة لدى إبليس وجنده قبل الدخول إلى ساحة الصراع الحي الحقيقي.

الإسلام والقرآن والنبي ﷺ كمال التوازن

ولما أن وصلت أساليب إبليس إلى أوجها في الإغواء، كان لابد من إيجاد قوة لدعم العقل وعناصره وأركانه؛ فكان لأجل هذه المهمة الضخمة العملاقة إنزال المعارف الاسلامية، والذي تمظهر ببعثة النبي محمد ﷺ وحيدة تستطيع كفالة توازن التسابق الوجودي في المرحلة الأخطر من تاريخ البشرية على الإطلاق، نعم إن نزولَ القرآن الكتاب الأوحد في هذا الوجود في قوة معارفه، وبعثةَ النبي محمد ﷺ الشخصية الأوحدية في الوجود ناسب هذه المرحلة التاريخية للبشرية؛ والتي هي مرحلتنا الآن، ولا يخلُّ القول إن معارف القرآن الكريم معارف ليس لها مثيل في تاريخ البشرية على الإطلاق في حجم قوتها وشدتها ونوعها مع ما قلناه من أن البشرية كانت في حاجةٍ إلى إيجاد التوزان- كما تقدم بيانه- للقوة العقلية، فكان الأنبياء عليهم السلام يقومون بالمهمة على أكمل وجه.

لذا لم يخل عصر من خليفة الله في الأرض، فكانت البشرية قادرة على تسيير مسيرتها بالعقل وبما كانت لديها من المعارف من الأنبياء في وقتها، فالمعارف كانت بحجم يسد احتياجها الوجودي آنذاك، فإذا كانت غير محتاجة إليها آنذاك وكان هدف الخِلقة ماضٍ ومستمرٍ على أكمل وجه فإنها إذاً لم تكن بحاجة إلى هذه المعارف التي جاء بها النبي محمد ﷺ.

العلاقة بين الأديان السماوية السابقة والإسلام

فنلاحظ أن العلاقة بينهما علاقةٌ متينةٌ، ولربما يمكن أن يقال أن العلاقة بينهما علاقةٌ طوليةٌ تكاملية.

الفرائض بوابة المعارف الإلهية في الإسلام

وُضعت مجموعةٌ من الفرائض العبادية التي شكلت بوابة المعارف لدعم القوة العقلية، وكقوة مساندة لعناصره وجنده، والفرائض التي فرضت على العباد هي: الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة ...إلخ.

ولايةُ أميرالمؤمنين علي عليه السلام وبنيه عليهم السلام

فلأجل استمرار المسيرة إلى يوم القيامة ومن دون الإخلال في توازن قوة العقل- نظراً إلى بقاء إبليس إلى يوم البعث- كان لابد من وضع حافظٍ وصمامِ أمانٍ لتلكم الفرائض كي تظل في عطائها النوري للأمة مستمرةً، ولتحرير الأمة من سيطرة القوة

الوهمية بقيادة إبليس؛ فلم يكن هذا الحافظ وهذا الصمام للأمان سوى أميرالمؤمنين عليبن ابيطالب عليه السلام وبنيه الأئمة المعصومين عليهم السلام فقد جاء في الروايات الشريفة هذا المعنى؛ فعن الإمام الباقر عليه السلام:

«بني الإسلام على خمس: على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية ولم يناد بشيء ما نودي بالولاية».[1]

وورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام:

«وأما ما فرضه الله عز وجل من الفرائض في كتابه فدعائم الإسلام وهي خمس دعائم وعلى هذه الفرائض بني الإسلام فجعل سبحانه لكل فريضة من هذه الفرائض أربعة حدود ولا يسع أحدا جهلها وأولها الصلاة ثم الزكاة، ثم الصيام ثم الحج ثم الولاية وهي خاتمتها والحافظة لجميع الفرائض والسنن».[2]

يوم الغدير إعلان إكمال التوازن

وكان يوم الغدير حيث تنصيب أميرالمؤمنين عليه السلام لأجل الأعلان عن بداية نهاية مرحلة إكمال التوازن العقلي، ولأجل دعم فرائض الدين الإسلامي، والإعلان عن قوة الردع الأعظم في تاريخ البشرية على الإطلاق لقوى الشر التي وصلت إلى أوج شرها والمتمثلة في إبليس وجنده من جهة، وعن الإعلان عن قوة الجذب إلى الصراط المستقيم والثبات عليه عبر تقوية العقل وجنده من جهة أخرى، قال تعالى:

«**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**».[3]

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله من خطبته يوم الغدير:

«معاشر الناس: إنما أكمل الله عز وجل دينكم بإمامته».[4]

دخول اليأس إلى نفوس أتباع إبليس بإمامة أميرالمؤمنين علي عليه السلام

ولأن هذا اليوم شكل أهم منعطفٍ في أهم مرحلةٍ في تاريخ العقل البشري من جهة التقوية بمساندة ما سبق مثلها من مساند في تاريخها، فقد بان العجز على أتباع إبليس؛ حتى اضطرهم إلى الإعلان عن يأسهم من تحقيق ما أعلنه سيدهم إبليس يوم تمرده، فجاء القرآن الكريم ليعلن على الملأ ما حدث لأتباع إبليس إثر إعلان يوم الغدير، وما حلت بهم من قارعة، فانظر إلى الآية المباركة التي سبقت فقرتها الشريفة الفقرة المباركة السابقة عليها.

قال تعالى:

«**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ**».[5]

١- الحر العاملي: ١٤١٤، ج١، ص. ١٨.

٢- م.ن، ص. ٢٨.

٣- المائدة: ٣.

٤- الفتال النيسابوري، ١٣٩٦، ص. ٩٤.

٥- المائدة: ٣.

وجاء في الخبر الشريف:

«إن النبي ﷺ كان يخبر عن وفاته بمدة ويقول: قد حان مني خفوق من بين أظهركم، وكان المنافقون يقولون: لئن مات محمد لنخرب دينه. فلما كان موقف الغدير قالوا: بطل كيدنا فنزلت اليوم يئس الذين كفروا الآية.[1]

لماذا ليس إبليس؟

سؤال: وأين إبليس؟ فلماذا لم يُبين عن يأسه هو؟

الجواب: لأن إبليس آيس ليلة بعثة النبي ﷺ وهي ساعة الإعلان عن بداية مرحلة أقوى كمال التوازن في تاريخ البشرية وخاتمته، وقد ورد عن أميرالمؤمنين ﷺ في نهج البلاغة:

«وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟

فَقَالَ: هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَى مَا أَرَى إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ وَلَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ».[2]

الصراط المستقيم هدفٌ ومستهدفٌ: فالقرآن الكريم بيَّن أن الصراط المستقيم قد وقع على نحوين:

- **النحو الأول: الهدف**

قال تعالى:

- «**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**».[3]
- «**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**».[4]
- **النحو الثاني: المستهدف**

قال تعالى:

«**لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**».[5]

فان إبليس يستهدفه بكل ما أُوتي من قوة.

١- المجلسي، ١٤٠٣، ج٣٧، ص. ١٦٣.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢، المسماة بـ"القاصعة".

٣- الفاتحة: ٦.

٤- الأنعام: ١٥٣.

٥- الأعراف: ١٦.

معنى الإمامة في كتاب الله عز وجل

في القرآن الكريم إمامتان:

- **الإمامة الأولى: الإمامة الإيجابية**

وهي التي تبين لنا سابقا إحدى أهم معالمها وخصائصها وهي: الولاية التكوينية الإيجابية، ولا يمنع الجمع بينها وبين الإمامة التشريعية في إحدى تجلياتها، وفي إحدى مواقعها.

- **الإمامة الثانية: الإمامة السلبية**

وهي التي تبين لنا سابقا أيضاً إحدى خصائصها وهي: الولاية التكوينية السلبية، وهنا أيضاً لا يمنع الجمع بينها وبين الإمامة التشريعية.

والرواية الشريفة تبين هذه الحقيقة، فعن الإمام الصادق عليه السلام:

إن الأئمة في كتاب الله عز وجل إمامان قال الله تبارك وتعالى: «**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**»،[1] لا بأمر الناس يقدمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم.

قال: «**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ**»،[2] يقدمون أمرهم قبل أمر الله، وحكمهم قبل حكم الله، ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عز وجل.[3]

الغدير وحل المشكلة البشرية العالمية

فبما أن الإنسان مفطور على حب الكمال، فإنه لا يتحصل إلى بقيادة العقلية، وبما أن عقول الناس عامة قد أصيبت بشوب من عدة عوامل كان لابد من الرجوع إلى التي لا يشوبها شيء، بل ظلت محافظة على أصولها النورية الملكوتية، وما المصدر العقلي الأساسي سوى محمد وآله عليهم السلام والذين يجمعهم عنوان الولاية، وبما أن رسول الله صلى الله عليه وآله علم برحيله من هذا العالم، وكان يعلم بالتحدي النفساني الخطير، فإنه لابد من وضع المؤمِّنات والضمانات التي تضمن سلامة صراط العبودية، فكان هذا المؤمِّن الضامن هو: أميرالمؤمنين علي عليه السلام كان يوم الغدير عبارة عن يوم الإعلان للصراط الضامن والمؤمِّن لسلامة وأمن البشرية.

وهنا يرد سؤالٌ مهمٌ: ما هو الشيء الذي تضمنه الولاية للبشرية؟

الجواب: إن الله تبارك وتعالى قد وضع في هذا العالم والوجود ضوابط تحكمه، وقوانين تربطه وتديره، كما أنه سبحانه وتعالى بين أن هذا العالم ليس إلا جسراً رابطاً يقود إلى عالم الآخرة، وبين سبحانه وتعالى أيضاً وجود علقة تكوينية بين العالمين، كما أنه سبحانه وتعالى أكد ووضح أن العلاقة بين القوانين وبين العوالم هي علاقة العلة والمعلول، فمع قليل من التأمل سنجد أن كل هذا المذكور لا يمكن للإنسان الاطلاع عليه، فلذا كان لابد من إيجاد من يتمكن من إخبار الناس بالعلقة والرابطة وبحقائق الأمور، وما كان هذا الذي أوجده الله تعالى سوى خليفة الله، والذي هو رسول الله ونبي الله ووصي رسول الله.

١- الأنبياء: ٧٣.

٢- القصص: ٤١.

٣- الكليني، ١٣٦٣، ج١، ص. ٢١٦.

وكان يوم الغدير هو اليوم الذي شكل فتحاً للبشرية لأجل الوقوف على حقائق الوجود من جهة، وعلى معرفة الربط بين العوالم من جهة أخرى، وعلى معرفة المؤثر الإيجابي والسلبي للسلوك الإنسان على التكويني من جهة ثالثة، فلذا أكدت مولاتنا فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبتها التي ألقتها على النساء في بيتها في أيامها الأخيرة من حياتها في هذه الدنيا، فقالت:

«ويحهم أنّا زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة والدلالة ومهبط الروح الأمين والطبين[1] بأمور الدنيا والدين إلا ذلك هو الخسران المبين».[2]

تحقيق الخطة الإستراتيجية في يوم الغدير

١- الهدف الغائي للإنسان

أولاً: الإنسان الكامل، إن الإنسان مخلوق لأجل غاية عظيمة، وهي: التحقق بأسماء الله وصفاته، وهذه المرتبة عظيمة جداً، وبالوصل إليها يحقق هذا الإنسان سعادته، ويحقق حضارته، فبدأت المسيرة في عالم الإمكان كي يتجلى هناك الإنسان الكامل، وحمل الأنبياء هذه المهمة الصعبة، إذ ليس من السهل صناعة الإنسان الكامل، وبالخصوص وجد هناك من يضع أمام هذه المسيرة السامية العقبات، ويحرض الناس على الخروج من عالم الصفاء والطهر إلى عالم الرذيلة والفساد وهو: إبليس.

ثانياً: المجتمع الإنساني الكامل، ونلاحظ لما أن وصلت البشرية إلى مرحلة من مراحلة سيرها من تحقيق هذا الهدف العظيم وهو تحقق الفرد أو الأفراد بصفات الكمال والتجلي بأسماء الله تعالى، إذا بها تنتقل نقلةً إستراتيجية نوعية أخرى وهي صناعة وإيجاد المجتمع الإنساني الكامل، وقد وكلت هذه المهمة الصعبة على الإطلاق بيد خاتم الأنبياء والمرسلين النبي محمد صلى الله عليه وآله وأصحابه المنتجبين، والتي إبتدأت منذ عهد النبي إبراهيم عليه السلام وذريته، لتسلم بيد خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وأصحابه المنتجبين.

٢- تحقيق المشروع الإلهي على يد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

واستلم النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه المنتجبين هذه المهمة، وأدرك جيداً أنه أمام مهمة مصيرية، وهذه المهمة تجمع بين:

- **أولاً:** خلاصة دور الإنبياء جميعاً.
- **ثانياً:** ختام هذا الدور الكوني الوجودي.

وأن عليه إنجاز هذه المهمة على أكمل وجه، قال تعالى:

«مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا».[3]

- **ثالثاً:** وهذه المهمة الخاتمية للنبي الأعظم صلى الله عليه وآله وأصحابه المنتجبين كما عرفت هي إيصال المجتمع الإنسان إلى مرتبة الإنسان الكامل.

١- الطبين: الفطن الحاذق العالم بكل شيء.

٢- الطبرسي، ١٣٨٦، ج١، ص. ١٤٧.

٣- الأحزاب: ٤٠.

٣- مهمة النبي الأعظم ﷺ وأصحابه المنتجبين

فعمل النبي ﷺ وأصحابه المنتجبين ضمن أطر الظرف الموضوعي:

- **أولاً**: لمعرفته بالمعطيات الموضوعية للمجتمعات والنفوس المعادية للإسلام من جهة.
- **ثانياً**: لإستشرافه على المستقبل القريب والبعيد لما يتمتع به وأصحابه المنتجبين من حالة نورية.

٤- الفقهاء العدول الخطة الإستراتيجية لاستمرار المشروع الإلهي

وكان لا بد من تمرير المشروع الإلهي عبر الأفراد من البشر، وعبر المجتمعات البشرية وبشكل سلمي هادئ، ولكن قد يقال عن العلة من وراء مشروع الفقهاء والفقاهة في تاريخ الأمة الإسلامية؟

الجواب: قد يقال في معرض الجواب ما هو متعارف عليه في الوسط الفكري العام، وهو:

- **الجواب الأول**

الخوف على سلامة خليفة الله، فلقد كانت الظروف الإجتماعية والسياسية لا تسمح لاستمرار شخص الإمام بين الناس والمجتمع، وعلل ابتعاده عن الساحة الاجتماعية العامة الظاهرة عديدة، فبعضها مصرح بها في النصوص الشريفة، وأخرى يمكنها أن تنتزع مجموع النصوص الواردة في القرآن الكريم والسنة الشريفة.

- **الجواب الثاني**

تسليم تجربة إقامة المشروع الإلهي بيد الفقهاء.

فمما ننتزعه من الطبيعة التي عليها العمل الإستراتيجي الذي يستظل بظل الهداية الإلهية للعباد، هو أن إحدى الأسباب من وراء تسليم المشروع الإلهي بيد الفقهاء هو:

- **أولاً**: للتأكيد على الحقيقة.
- **ثانياً**: والإثبات بأن الأمر ليس ادعاء.

والحقيقة والإثبات ليسا إلا أن صناعة مشروع الفقاهة والفقهاء لاستلام:

أ- التجربة الرسالية المتمثلة في الأنبياء والرسل والأوصياء.

ب- مشروع صناعة الإنسان الكامل، ومشروع صناعة المجتمع الكامل.

دليل على أن المشروع الإلهي الذي تكفلت بحمله الإمامة قد أثبت نجاحه في طريق مشروع صناعة المجتمع الكامل، حيث سيستلم هذا المشروع الإلهي الذي كان بيد الأنبياء والرسل والأوصياء ﷺ أناس ليسوا بأنبياء ولا رسل ولا أوصياء.

الخاتمة

إذ نريد القول بأن مهمة تقديم الأحكام للأمة، وتحمل مسؤولية بيانها للشعوب مسؤولية جسيمة خطيرة وعظيمة، لم تعط في تاريخ البشرية إلا بيد الأنبياء والرسل والأوصياء عليهم السلام وأما أن تعطى لبشر غيرهم فهذا ما لم نقف عليه بدقة، نعم إن الذي وجدنا تحقق إعطاء مسؤولية بيان الأحكام بالاستنباط والاجتهاد هو في أمة النبي محمد صلى الله عليه وآله وأصحابه المنتجبين، ولكن مع التسليم بتحقق هذا الأمر في عهود الأنبياء السابقين فإننا نميل إلى القول أنه لم يكن بالمستوى الذي عليه في المدرسة الإسلامية، والعلة لعله هي نفس العلة التي كانت وراء ضرورة وجود نقلة نوعية في تاريخ الإمامة.

فيمكن القول إذن. أن هذا المشروع- مشروع الفقاهة- يعد بحسب ما لدينا من الوثائق والنصوص للسجل الرسالي الأول من نوعه ولو من الجهة النوعية في تاريخ البشرية على الإطلاق حيث يقوم الفقيه بتحمل أعباء مسؤولية الهداية، ويقوم مقام النبي والرسول والوصي عليهم السلام في بعض صوره وأشكاله، وكل هذا يتم بالإشراف من خليفة الله على المؤهلين لهذه المهمة الخطيرة، وهي تتضمن مجموعة من المهام، منها:

- **أولاً**: القيام بقيادة الأمة.
- **ثانياً**: التكفل بتحصين المشروع الإلهي.
- **ثالثاً**: التكفل باستمرار المشروع الإلهي.
- **رابعاً**: الظهور بالوجه الأكمل لما تم تغذيته من قبل خليفة الله.
- **خامساً**: الوقوف أمام خطط إبليس وجنده وإفشالها.

فهذا يعني أن مسؤولية صناعة الإنسان الكامل قد أنيطت إلى الفقهاء، وهذه المسؤولية عظيمةٌ جداً. ولا يمكن لهذا المشروع أن يتوقف بأي حال من الأحوال، فكيف يتوقف وهو قد بدأ منذ عهد النبي آدم عليه السلام وانتقل بنقلة نوعية من عهد النبي إبراهيم عليه السلام إلى أن انتهى إلى عهد النبي محمد صلى الله عليه وآله وأصحابه المنتجبين وقد مر بعقبات أشد وأعظم لقتله واغتياله؛ إلا أنه ظل كما هو يتألق في سماء العز، وشامخاً رغم كيد إبليس وجنده.

فلذا لا يمكن الانفصال عن الإمام بأي حال من الأحوال، فإن الوقوف على تفاصيل القانون التكويني، وعلى تفاصيل عالم الغيب غير مبذول لأي أحد، بحكم ما عليه الطبيعة الإنسانية من ابتلائها بنحو شائبة تمنعه من الولوج إلى كل أقسام عوالم الغيب، وهذا بنفسه كاف في الإستدلال، وآية الإمامة الجعلية التي خوطب بها النبي إبراهيم عليه السلام فيها دليل على هذا المعنى: «**لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**».[1]

١- البقرة، ١٢٤.

المصادر

١- **القرآن الكريم**.

٢- **نهج البلاغة**.

٣- الحر العاملي، محمدبن حسن.، (١٤١٤)، **وسائل الشيعة فى تحصيل مسائل الشريعة**، بيروت: مؤسسة آل البيت ﷺ.

٤- الطبرسي، أحمدبن علي.، (١٣٨٦)، **الإحتجاج على أهل اللجاج**، النجف الأشرف: دار النعمان.

٥- الفتال النيسابوري، محمدبن الحسن.، (١٣٩٦)، **روضة الواعظين**، قم: منشورات الشريف الرضي.

٦- الكليني، محمدبن يعقوب.، (١٣٦٣)، **الكافي**، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، طهران: دارالكتب الإسلامية.

٧- المجلسي، محمد باقر.، (١٤٠٣)، **بحارالأنوار**، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی